محاضرات في النص الأدبي القديم /نثر

سنة أولى ليسانس " المجموعة الثانية "

الأستاذة :وهيبة لماني

المحاضرة السابعة: فن الرسائل

١- تعريف الرسالة:

لقد اشتق فن رسالة من المادة اللغوية " رَسَلَ " التي تدل على معان حسية كثيرة أفاضت أمهات المعاجم العربية القديمة الحديث عنها وهي: القطيع من كلَّ شئ ،أو القطيع من الإبل والغنم ، أو الإبل قطيع بعد قطيع .....

وقد تطوَّر مفهوم لفظ رسالة من الاستعمال الحسي إلى الاستعمال المعنوي .فقد ذكر ابن منظور أن الإرسال يعني التوجيه ،و الاسم الرِّسالة والرَّسالة ثم تطور هذا المفهوم للفظ رسالة وانطلق من المجال اللغوي ليدل على كلام يراسل به من بعيد.

وقد عدَّ النقاد القدماء الأدب منظوم ومنثور، والمنثور منه الخُطَبُ والرسائلُ. والمقصود هنا بالرسائل الرسائل الفنية التي تعد لون من ألوان النثر الفني الجميل والتي تتطلب من منشئها أن يستخدم طاقات فنية مختلفة تتعلق بالدقة في اختيار الألفاظ وحسن تنميقها ، وحلاوة تركيب الجمل ، وصياغة العبارات في تأليف المعاني ، والموازنة بينها وبين الكلمات التي تعبر عنها إلى جانب توفير الإمتاع الفني لنفس القارئ

فالرسائل الفنية بهذا المفهوم هي ذلك اللون الأدبي الذي يشمل جميع موضوعات الرسائل النثرية الفنية المتبادلة بين الناس على اختلافها في الطول ، ويخرج من دائرته تلك الرسائل التي تتسم بالطابع الفكري ، والتي لا نجد فيها أثر لطابع الفني.

٢-تطور فن الرسائل :

عُرفت الرسائل منذ الجاهلية في بعض البيئات التي عرفت فيها الكتابة ، وارتبطت بالشفوية في ظل غياب وسائل الكتابة . و بمجئ الإسلام دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تعلم القراءة والكتابة ، واتخذ من الرسائل وسيلة لا غنى عنها في نشر الدين الجديد فراسل ملوك العرب والعجم وتبعه الخلفاء من بعده . وقد تنوعت موضوعات

ومضامين رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم وتنوعت أساليبها منها المعاهدات وكتب الصلح ، كتب الدعوة إلى الإسلام ، الرسائل والكتب التشريعية ، الكتب الإدارية والتنظيمية ، الرسائل الشخصية .

وزادت الحاجة إلى الرسائل مع قيام الدولة الأموية وانتشار التدوين لكثرة الأحداث والتطورات التي شهدتها فانتشرت الرسائل بمختلف أنواعها وكثرت لاسيما الرسائل السياسية مثل الرسائل التي كتبتها فرق الخوارج والشيعة والزبيريين ومَنْ ثاروا على الدولة الأموية أمثال ابن الأشعث ،أو كتبها خلفاء بني أمية وولاتهم وقادتهم .

وقد حرص هؤلاء في أن تأخذ الرسائل طريقها إلى التأثير والإقناع فنوعوا في أساليبها ،واختيار ألفاظها ، فمما يذكر أن عبد الرحمن ابن الأشعث قال لابن القَرِيَّة كاتبه حين ثار على الحجَّاج:" إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتابًا مسجَّعًا أعرِّفه فيه سوء فعاله وأبصِّره قبح سريرته " ، ويُنفذ ابن القرية مشيئته ، ويرد عليه الحجاج برسالة مسجوعة ، ورغبة ابن الأشعث في أن تكون الرسالة مسجوعة الغاية منها أن يضيف إلى حجته في الثورة حجة فنية من بلاغة كاتبه ، وفي ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تقترن بها غايات بلاغية ، وكلٌّ كاتب يأتي من هذه الغايات بما يتفق وذوقه .

واشتهر في العصر الأموي طائفة من الكتاب المحترفين ، وهم كتاب الدواوين . إذ كان لكل والٍ وقائد كاتب و أحيانًا تكون طائفة من الكتاب . وكان معظم هؤلاء الكتاب يطمحون إلى أن يُعينوا في دواوين الخلفاء، بل إن هناك منهم من اشتهر بالكتابة ونُسبت إليه مثل عبد الحميد الكاتب ، وابن العميد ، حتي قيل " فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد " ، ويقول ابن النديم في عبد الحميد الكاتب " عنه أخذ المترسِّلون ولطريقته لزموا ، وهو الذي سَهَّل سبيل البلاغة في الترسل" ، فقد امتلك عبد الحميد الكاتب أسلوب أدبي بليغ في صنع رسائله. نحا بالكثير من رسائله إلى رسائل أدبية تكتب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد ، وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة ، فلم تعد الكتابة وحدها كافية، بل أصبح أساسا فيها أن تُسْنَد بالتفنن في القول وتشعيب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة أجنبية وعربية ، وأخذت تَزْحم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين ، ومن رسائله

ما كتبه إلى أهله يعزِّيهم عن نفسه وهو منهزم مع مروان :"أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور ، وجعل فيها أقسامًا مختلفة بين أهلها فمن درّت له بحَلاوتها وساعده الحَظُّ فيها سكن إليها ورضي بها وأقام عليها ، ومن قَرصتْه بأظفارها ،وعَضّته بأنيابها و توطأته بثِقلها قلاها نافرًا عنها وذمَّها ساخطًا عليها ، وشكلها مستزيدًا منها ، وقد كانت الدنيا أذاقتنا حَلاوتها وأرضعتنا من دَرِّها أفاويق ، استحلبناها ثم شمست منا نافرة، وأعرضتْ عنا متنكرة ، و رَمحتنا موليّة ، فملُحَ عذبها، وأمرَّ حلوها وخشَن ليّنها ، ففرَّقتنا عن الأوطان وقطَّعتنا ، فدارُنا نازحةُ وطيرنا بارحة ، قد أخذت كلَّ ما أعطت، وتباعدت مثلما تقرَّبت ، وأعقبت بالراحة نصَبًا ، وبالجَذل همًا ، وبالأمن خوفًا ، وبالعزّ ذُلاًّ، وبالجِدَةٍ حاجة ، وبالسرَّاء ضراء ، وبالحياة موتًا ، لا تَرْحم من استرحمها ، سالكةً بنا سبيلَ مَنْ لا أوْبة له منفيِّين عن الأولياء مقطوعين عن الأحياء"

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد الكاتب التي تميَّز بها في أسلوبه ومعانيه ، فالألفاظ منتخَبة ليس فيها توعُّر ولا غريب وحشيٌ، وإنما فيها العذوبة والحلاوة ، والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء ، وإنما فيها الوضوح وانكشاف الدلالة و الطباقات والتصويرات تُضْفي على أسلوبه روعة بيانية خلابة ، فهي جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام .

ويأتي العصر العباسي امتدادًا للعصر الأموي من حيث الاهتمام بالكتابة والكتاب . فقد كانت الكتابة في هذا العصر الجسر الذي يصل الشخص إلى أرفع المناصب ، وكان من يتقنها من الوزراء والقادة والولاة يَلْقَى الإكبار والإعجاب في كل مكان ، وقد نشطت الرسائل بمختلف أنواعها الرسائل الديوانية ، الرسائل الإخوانية ، الأدبية....إلخ

ومن ينظر نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب والجدب ، وعهود الخلفاء لأبنائهم ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم . كما أنها أخذت تتناول بعض الأغراض التي كان يتناولها الشعر من تهنئات و تعزيات وشكر ، وقد غلب في هذا العصر على الرسائل الديوانية السجع . فلا نجد رسالة تخلو من زخارفه ولآلئه ، إذ غدا المثل الأعلى

للجمال الفني في الكتابة الديوانية لاسيما مع نهاية القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري.

ونمت الرسائل الإخوانية في هذا العصر نموًّا واسعا ، ونقصد الرسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنئة و استمناح ورثاء أو تعزية وكانت هذه العواطف تؤدَّى في العصر الأموي بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر ، أما في هذا العصر فقد زاحم فيها النثر بمنكب ضخم ، وأتاح له ذلك أمران :أولا ظهور طبقة ممتازة من الكتَّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يُعْنَونَ بتحبير كلامهم وتجويده وحَشدْ كل ما يمكن فيه من عناية فنية ، على نحو ما مر بنا آنفا ، والأمر الثاني مرونة النثر ويُسْر تعابيره وقدرته على تصوير المعاني بجميع تفاريعها قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية ، وقد طوَّع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ومرَّنوها على أن تحمل كثيرا من المعاني الجديدة غير المألوفة .

وهذه الرسائل الإخوانية التي كانوا يصورون بها عواطفهم ومشاعرهم من ثناء أو هجاء أو استمناح أو استعطاف أو عتاب أو عزاء أو تهنئة أو تهاد دفعهم ....في بعضها إلى أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهي التي تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير حتى لا تسقط في مهاوى الشر .

ولقد كان فن الرسائل من أسبق ألوان النثر الفني إلى الظهور في الأندلس حيث اهتم الأندلسيون منذ الفتح الإسلامي لتلك البلاد بالمراسلات التي عرفت فيما بعد الرسائل الديوانية ، ولاسيما أنهم كانوا متمكنين من الخطابة والشعر والكتابة منذ أول قدومهم إلى تلك البلاد ، كما يؤكِّد ابن بسام بقوله:" إنَّ أهل هذه الجزيرة –مذ كانوا –رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة "

وقد كان نشوء الدولة الإسلامية في الأندلس واختلاف مهامها ، وتعدد وظائفها السياسية و الإجتماعية والإدارية ، دافعًا قويًا لنشوء فن الرسالة ليؤدي هذه المهام وتلك الوظائف ، وعندما أخذت هذه الدولة الجديدة من التمدن والتحضر بكل سبب ، زادت

حاجتها إلى كتابة الرسائل الديوانية لتواكب مهامها الجديدة ، وتساهم في تثبيت دعائمها ، وتسيير شؤونها ، وتنظيم مجتمعها ، وإلى ذلك يشير ابن خلدون بقوله " وإنَّما أكَّد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية ، شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد ، فصار الكِتَاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية "

وقد اتخذ ولاة الأندلس وأمراؤه منذ بداية القرن الثاني الهجري كُتَّابا يكتبون لهم فيما يصدر عنهم من رسائل وعهود ، وفيما يكاتبون به عمَّالهم وولاتهم ،ويهدِّدون به الخارجين على حكمهم .وبالنظر إلى الخصائص الفنية لهذه الرسائل يبدو لنا أنها تشبه إلى حد بعيد تلك الخصائص الفنية التي اتَّسمت بها الرسائل في المشرق أيام الدولة الأموية ، فهي تتَّسم بالبساطة والبعد عن التعقيد ، والإيجاز في القول والقصد في التعبير ، والابتعاد عن المحسنات البديعية إلاَّ ما جاء فيها عفو الخاطر دون تكلف أو افتعال ، واستمر الأندلسيون يولون اهتماما بفن الرسائل متأثرين بأساليب النثر الفني المشرقي فتأثروا بأسلوب عبد الحميد الكاتب الذي يعدُّ مبتكر أدب الرسالة الفنية في المشرق ، كما تأثروا بطريقة الجاحظ ومدرسته الفنية .وقد أفرد الأندلسيون للترسيل والإشراف على شؤون ديوان الرسائل وزيرا خاصا . وبلغ فن الرسائل ذروته في الأندلس مع بداية القرن الخامس الهجري نتيجة اتساع رقعة الدولة ، وامتداد سلطانها ، فقد استكملت الرسالة في هذا القرن قواعدها الفنية المعروفة ، إذ صار الكُتَّاب يهتمون بعناصر البناء الفني للرسالة من حيث البداية والموضوع والختام ، فظهرت الرسالة في بناء فني متكامل ، وقد ارتقوا كذلك بأساليبهم البيانية ، وعنوا باستعمال المحسنات البديعية المختلفة من سجع وجناس ومقابلة وازدواج ، ومالوا إلى الإطالة والإطناب ، وإلى تدعيم الرسائل بالشعر ، وكثرت الألقاب والجمل الدعائية في مختلف الرسائل.

٤-أنواع الرسائل :

للرسائل الفنية أغراض متعددة لا تنجع فيها غيرها من ألوان النثر الفني الأخرى ، إذ إنَّ لكل لون ميدانه الخاص به ، فأغراض الرسائل في عرف النقاد القدماء تدور حول السلطانيات من : "الأحماد ، والأذمام ، والثناء، والتفريط، والذم والاستصغار، والعدل وما إلى ذلك ...."، إلى جانب ما يكتبه العمَّال والولاة إلى أمرائهم ، وتدور أيضا حول الإخوانيات من : استعطاف ، ووعيد ، واعتذار ، وعتاب ،وشكر، وشوق وغيره ، وتدور

أيضا حول موضوعات أخرى تتعلق بالمجتمع وجوانبه المختلفة ، وبالنفس الإنسانية وخصالها ، أي أن الرسائل تعالج موضوعات : سياسية واجتماعية وخلقية وذاتية وأدبية وغيرها.

١- الرسائل الإخوانية: هي تلك الرسائل التي تصوِّر عواطف الكتَّاب وانفعالاتهم ومشاعرهم الخاصة، وقد اصطلحت كتب الأدب على تسميتها بالرسائل الإخوانية ، وموضوعات هذا اللون من الرسائل كثيرة ومتعددة ، جعلها مؤلف صبح الأعشى في سبعة عشر بابا منها :التَّهاني والتَّعازي ، والعتاب والشكوى والاعتذار والاستمناح والشكر وما إلى ذلك من العواطف.

٢- الرسائل الدِّيوانية : وهي تلك الرسائل التي تعالج شؤون الإدارة والتنظيم الداخلي الذي يتعلق بالحياة العامة ، وشؤون الرعية، والرسائل الدِّيوانية متعددة كثيرة الأغراض منها : رسائل التولية والتعيين ، ورسائل التوجيهات والوصايا والأوامر الإدارية المختلفة .....إلخ

٣- الرسائل الأدبية : وهي التي تُعنَى بالكتابة في موضوع محدد ، مما نسميه اليوم باسم المقالات . ومن أمثلة هذه الرسائل رسالة يحي بن زياد التي ردَّ بها على رسالة لابن المقفع طلب إليه فيها أن تنعقد بينهما أسباب الأخوة والوداد " أما بعد فإنا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله في تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذي البُعْدة ومشاركته بين ذوي الأرحام في القُرْبة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نِسْبته ، فنسبنا الإخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا البِرّ، فوجدناه محتويا على الكرم والنَّجْدة والصدق والحياء والنَّجابة والزَّكانة وسائر ما لا يأتي عليه العدد من المحامد. ثم انحدرنا فيما أصعدنا فيه من هذا النسب ، فعُدْنا إلى الإخاء ، فوجدناه لا يقوم به إلا مَنْ هذه الخصالُ كلها أخلاقه . ولما استوجب الإخاء مسالك المحمدة كلها رأينا أن نتخيَّر له المواضع في صواب التروِّى وإحكام التقدير، وعلمنا أن الاحتباس به أحسنُ من الندم بعد بذله ، واستوجب –إذ كان جماع المحامد–أن نتخيَّر له محامله التي يُحْمَلُ عليها ، وكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين ، فصنفٌ عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم، وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء

، وسرعة في الانتهاء ، فقدَّموا اللائمة، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التَّرْوِية ، واستَحْلوا عاجل المحبة ، ولهوا عن آجل الثقة ، فكانوا بذلك أهل لائمة ، ولم يجد المُعْذِرون إلا الصبر على تلك والاستعمال للرأي والاستعداد بالعذر عند المحاجَّة "

وواضح أن يحي بن زياد لا يتحدث هنا عن إخائه لابن المقفع ووداده له إنما يحدث حديثا عاما عن الإخاء (أي دون ربط موضوع الإخاء بشخصية ما) ، فهو ينظر فيه نظرة عامة ، أو قل ينظر إليه من حيث هو نظرة كلية يرتفع فيها إلى الحديث عن حقيقته المجرَّدة وما ينبغي أن يكْفَلَ له من الوفاء . ويراه يقوم على البِر ، ويتغلغل في بحث جوهره ، فيراه يحتوي مجموعة من الخصال النبيلة لا يتمُّ كيانه بدونها وفي مقدمتها الكرم الذي يجعل الأخ يبذل لأخيه ماله، والنجدة التي تجعل الأخ يبذل لأخيه دمه ، والصدق الذي يدل على صدق القلب وإخلاص السريرة ، والحياء الذي يكفُّ صاحبه عن التطاول وسوء الأدب وسَوْرة الغضب ، والنجابة التي تحوط صاحبها بحسن الرأي وتبين حقيقة الأمر ، والزكانة أو صدق الحسِّ الذي يَكْفُلُ لصاحبه صواب القول والرأي.

المراجع المعتمدة :

١-تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف

٢-أدب الرسائل في صدر الإسلام ، جابر قميحة

٣-أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، فايز عبد النبي فلاح القيسي .

٤-الرسائل الأدبيّة النّثرية في القرن الرابع للهجرة ، غانم جواد رضا الحسن.

٥-أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس من فتح الأندلس إلى سقوط غرناطة ، سامية جباري .